مأثورات مشهورة من التراث السوداني

إبراهيم القرشي

لأهل السودان عناية كبيرة بآلة الحرب من سيوف ودروع وطبول يتوارثونها كابراً عن كابر، وتعد الخيول وسيلة من وسائل الحرب عندهم، ولهم بها وبنسلها الأصيل اهتمام كبير. أما الإبل فهي مالهم مثلما كانت مال العرب الأول، لذلك حفل التراث السوداني بكثير من مأثوراتها التي أصبحت جزءاً من تاريخهم. حفظوا القابل منها للحفظ وتوارثوه، كالسيوف والدروع والطبول، وسجلوا الزائل منها في حكاياتهم وأشعارهم فبقيت أسماؤها أعلاماً في تراثهم، مثل نجائب الإبل وكرائم الخيل، تحكي عن أصالة تلك المأثورات ودورها في تلك الحياة القديمة. ومن عادة الناس وخاصة العرب أنهم يسمون أشياءهم الأثيرة. فقد سمعنا عن مشاهير خيول العرب مثل داحس والغبراء والعصا. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كذلك – ولنا فيه أسوة – فله من الخيول "الظرب" ومن النياق "القصواء" وكان اسم بغله "الدلدل" وحماره "اليعفور" وقدحه "الريان". وكان سيف الكرار معروف بـ"ذي الفقار" وسيف عمر بن معد يكرب يسمى "الصمصامة". وهم إنما يعمدون بهذه التسمية إلى مدح المسمى أو إبراز صفة فيه، وكذلك فعل السودانيون. وقد كتب بعض الباحثين[1] عن السيوف السودانية الموجودة في الخارج فذكر سيفاً للعبدلاب و"سيف النصر" الذي أهداه السيد عبدالرحمن المهدي لملك بريطانيا في سنة ١٩١٩م. وأود التنبيه هنا على أن هذا السيف لم يبق في الخارج، لأن ملك إنجلترا قابل أريحية السيد عبدالرحمن بأصالة نادرة. يقول السيد عبدالرحمن المهدي في مذكراته: "وفي لندن قابلت ملك الإنجليز... وقدمت له سيفاً كهدية ورمزاً للصداقة، وقبل الملك السيف ثم تفضل بإعادته إلي قائلاً "احتفظ بهذا السيف لك ولأولادك".[2] إذن عاد ذلك السيف إلى السودان. أما السيف الآخر – سيف

(١) جريدة الخرطوم (عدد ٣٤٢٤ بتاريخ ٢٠٠٣/٩/٢٢م) مقال عن السيوف العربية للدكتور مختار عجوبة.

(٢) مذكرات الإمام عبدالرحمن المهدي، ص ٤٣.

العبدلاب – فمعلوم أن أصحاب هذه السيوف كانوا يعرفون أنها مآثر خالدة، فلا يعهدون بها إلا لمن يثقون في حفظه لها. وقد جاء في بعض تواريخ العبدلاب أن هذا السيف هو سيف الشيخ عجيب، وورثه الشيخ الأمين ود مسمار وقاتل به في واقعة القلابات، وأن بعض شيوخ العبدلاب أوصى بأن يسلم السيف للشريف يوسف الهندي.[٣] ولكن سطا النور عنقرة – أحد قواد المهدية المعروفين – على ذلك السيف واغتصبه قبل أن يصل إلى الشريف. غير أنه بعد مدة أحضر السيف من تلقاء نفسه وقال للشريف: "السيف ده أنا مما دخل علي هلك أولادي مرة واحدة وهلكني وشفت فيهو حاجات عجيبة في المنام، ماريحتني". فأخذه الشريف بمبلغ (قيل والله أعلم إنه دفع فيه أربعين أوقية ذهب). وفيما بعد أرسل الشريف لمحمد ود الشيخ جماع وقال ليهو: "ده سيفكم وأنا الخسرتها فيهو تبقى كرامة ساكت لي سيفكم".[٤] وهذه المبالغة في القيمة تدل – إن صحت – على نفاسة هذا السيف. هذا هو سيف العبدلاب واسمه "الجمجم" nyam-nyam بإشراب الجيم نوناً (يصعب رسمها) من قولنا "أكلو جم nyam" حكاية لصوت الأكل، كأنهم يعنون أن هذا السيف من فرط مضائه وحدته يأكل الأعناق والرؤوس. بل إن للفظة (جم) ارتباط بالرهبة لأنها إنما يحكى بها صوت الأكل في الكائنات الخرافية كالسحار والبعاتي ونحوه. وللجمجم قصة مشهورة في واقعة الهلالية؛ فقد ذكروا أن الأمين ود مسمار كان يحمل هذا السيف فبارزه قائد جيش الفونج واسمه "ود وحش" فضربه الأمين ثلاث ضربات فلم تؤثر فيه لأن درعه حصينة، ثم حنى ظهره وقال للأمين "دُقَّ الجُرُنْ"، فقال له الشيخ الأمين: "العبد مجنون؟ أنا دار عجيب دي كلها ما شيلتني سيفاً يدق الجُرُن". ثم ضربه

(٣) الشريف يوسف الهندي الولي العالم الشاعر المصنّف ثالث زعماء السودان في القرن الماضي المتوفى سنة ١٩٤٢م. وهو ممن لا يخفى على القراء ولكن الذي يخفى على أكثر القراء أن الشريف يوسف الهندي ألف ثمانية عشر كتاباً طبعت منها عشرة كتب دينية، بعضها دواوين في مدح الرسول وسيرة أصحابه وبعضها في الفقه والعبادات وأوراد الطريقة المستقلة التي أنشأها (الطريقة الهندية). أما بقية كتبه المخطوطة فهي درر نادرة ونفيسة من تراث السودان وتاريخه وأنسابه ورجاله وأمثاله.

(٤) تاريخ العبدلاب من رواياتهم السماعية، أحمد عبدالرحيم نصر، شعبة أبحاث السودان ١٩٦٩م،ص ٩٢.

حتى رمى نصفه بالأرض وحولوا حصانه بنصفه الآخر فاخترق الجيش فولوا هاربين. وكان جيش ود وحش مكوناً من سبعمائة فارس مدجج بالسلاح والدروع السابلة فقالت بت الشيخ الأمين أبياتها المشهورة:

سـوّا لْهُم كُتَالْ قَبَل الهـلاليـهْ الشيخ الأمين نُقَّارْتُو حَرْبيَّهْ
سَبَعْطَاشَرْحصان سَكّنْ سُبُعْمايهْ من قومة الجهل ما عَرَّب الدَّيَّه

وقد بالغوا في وصف الشيخ الأمين ود مسمار حتى قالوا إنه كان قاهراً إذا قَحَّ يسقط الضّب من رأس البيت.[٥] وهذه القوة وذلك الضرب الموصوف مما سيرد مثله لاحقاً والمتمثل في شق المضروب إلى نصفين، قد لا يتصوره السامع ولكنه مستفيض متواتر في حكاياتهم الشفوية. وفيما وصل إلينا من آثارهم المكتوبة وفي أشعارهم، وما أكثر ما تسمع "شقاهو لي القربوس"، والقربوس هو عكفة السرج، يريدون إلى موضع مقعده. وربما كان ذلك عائداً – إن صح – إلى بنية أجسام فرسانهم ثم ثقل تلك السيوف وحدتها، وهما صفتان مشهورتان في سيوفهم.

ومن سيوف العبدلاب المشهورة "البابو"، وهو أيضاً من مأثورات الشيخ الأمين ود مسمار، وقد قتل به رجب ود أبولكيلك وزير السلطان بادي أبو شلوخ ملك الفونج. وذلك أن الملك قتل إبراهيم ود أبو لكيلك وقسم نساءه سراري، فجاء أخوه رجب في جيش جرار قيل إن النباتات اخضرّت من "نُقّاط الماء" لكثرة عدد الجيش. وكان النعيسان (شاعر إبراهيم) حرضه بقوله:[٦]

رجب ود محمد يَا جْرَكْ الإلِه الهِنا والهِناك مِن الكِتال مِضَاهِي
في أخوك المِتِلْ توب ا لعُشَاري الباهي إنت فِيك شِي ولا أنا براي بَلاهِي

وعوداً على سيف العبدلاب المودع عند الشريف الهندي قد يسأل سائل: ما علاقة الشريف يوسف الهندي بالسيوف حتى تودع عنده؟ لقد عرف الشريف باهتمامه بمأثورات التراث وآلة الحرب، وله في داره ما يقيم متحفاً في ذلك. وفوق ذلك فقد ألف الشريف كتباً

(٥) الغنا والشعر للشريف يوسف الهندي (مخطوط) و١٠٩.
(٦) المرجع السابق و١٠٦.

في التراث. وأحسب أن المكتبة السودانية لم تتضمن نظيراً لكتابيه المخطوطين "تاج الزمان في تاريخ السودان" وكتاب "الغنا والشعر – الدوبيت".[٧]

وهذا الكتاب الأخير أقل ما يقال عنه إنه درة تراث الأدب الشعبي في السودان. وعن موارده سأصدر في بعض ما أسوقه هنا من حديث السيوف المشهورة وغيرها.

وكتاب الغنا أو الشعر الشعبي يبرز اهتمام المؤلف بالتراث ومأثوراته. وقد كان الشريف أميراً لراية الأشراف في المهدية، وكان فارساً محباً وعارفاً بآلة الفروسية من جياد الخيل ونوادر السيوف وسوابغ الدروع، اهتم بجمعها حتى اتهمته الحكومة الإنجليزية بالإعداد لثورة أخرى كالمهدية فحددوا إقامته ببري. يقول الشيخ الجابري: "كان للزبير باشا سيف ثمين يعتز به ويصطحبه في غدواته وروحاته، فلما مات وقع هذا السيف في يد المرحوم الشريف يوسف الهندي فاعتز به وحفظه عنده كتذكار ثمين لا يقدر بمال (لأن الزبير فارس زمانه وهو خال الشريف وصهره). وكان الشريف أكبر الزعماء مقاماً عندما أعيد فتح السودان – والكلام للجابري– وقد ظل يقيم في سنار حتى سنة ١٩٠٨م ولكن الإنجليز بدأوا يشكون في إخلاصه بعد واقعة "كتفية" بسبب إيوائه لفلول أنصار ود حبوبة عندما كان في سنار، فدعوه للإقامة في الخرطوم. ولولا مكانته الروحية التي تبلغ حد التقديس في نفوس أنصاره ومريديه من قبائل العرب لمثلت به الحكومة كما ضيقت الخناق على غيره من الزعماء والفقهاء". انتهى كلام الجابري.[٨]

وربما كان السيف المذكور هنا هو "أب غارب" سيف حسب الله ود السلطان محمد الفضل سلطان دارفور، سلبه منه الزبير باشا بعد أن هزمه، وهو الذي قال فيه شاعر الزبير أبو شورة القريدابي:[٩]

أصبحْ مِنَيِّل كارب حسب الله القبيل قلفا صميم وبحارب
مَرّاً يِصُرّ العين ومراً يِبرُّمَ ا لشارب مد إيدو الزبير من حكرو شال أب غارب

(٧) كلفت بتحقيق كتاب "الغنا والشعر" من قبل أسرة الشريف الهندي.
(٨) في شان الله، محمد أحمد الجابري، دار الفكر العربي، ص ١١٩.
(٩) الغنا، ورقة، ٧٨.

ومن السيوف العتيقة التي تتبع الشريف سيرتها وأرخ لها سيوف الحَمَدة[١٠] المشهورة "القَرَّام واللُّصّيق"، والأخير أعطاه ملك الفونج لموسى أبو جن جد الحمدة، "والقرام" أعطاه النُّقُسْ (النجاشي) لأسلافهم ومكتوب عليه (وورثَ سليمانُ داود) وتاريخه ثلاث آلاف وخمسمائة سنة. وقد أعطاهم فيه الخواجة سنجر ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه فلم يعطوه له. وقد سلم هذه السيوف الطيب ود الشيخ أحمد أبو جن ليونس الدكيم الأمير المشهور في المهدية وضاعت منه، وقيل باعها للشيخ دفع الله الغرقان. وعلى الرغم من أن هذا التاريخ الذي ذكره المؤلف مما يصعب التحقق من دقته إلا أن فيه إشارة إلى قدم هذا السيف وعتاقة توارثه، وما بذل فيه من ثروة طائلة بمقاييس ذلك الزمن دلالة على أصالته وإشارة واضحة إلى حفاظ القوم على مأثوراتهم. وكان القرام إذا برد بالحديد لا يؤثر فيه المبرد إلا إذا أحرقوه بالنار، فيبردوه ليخف ثقله. هكذا ذكره الشريف في محفوظ الغنا ثم قال: "أخبرني محمد رانفي الضباني قال إن يونس (الدكيم) برد القرام بالمبارد فلم تؤثر فيه، وأخيراً أحرقه بالنار وبرده ليخفف من ثقله وذلك بالقلابات.. وجميع رجال المهدية يبردون سيوفهم لتكون خفيفة لأنهم لا يضعونها عن عواتقهم".[١١] وكان لكل سيف من سيوفهم المشهورة غلام مخصوص يحمله. والشاهد على تخصيص الغلام (الفرخ) لحمل السيف ما جاء في قصة الأرباب إدريس ود الفحل مك جعل حين ذهب إلى مك سنار متحدياً بعد أن هزم جيش المك وأقسم على أهله ألا يتبعه إلا عشرون فارساً من عبيده مع كل واحد حصان وناقة عليها عدته والأنقيب (الغناي) والفرخ الصغير الذي يحمل سيفه. ثم جاء في الخبر قول الراوي: "ومدَّ له فرخه (غلامه) سيفه فاخترطه"[١٢] وفي هذا دليل على العناية بالسيف وفيه إشارة إلى ثقله حتى إنه يخصص له من يحمله حتى تحين ساعة استخدامه. والقرام اسم يدل على مضاء السيف و"القرم" قطع الشيء من طرفه، يريدون أنه يقطع حيثما وقع.

(١٠) الحمدة فرع من قبيلة رفاعة.

(١١) الغنا والشعر: و٨٨.

(١٢) المرجع السابق و١١٩.

ومن سيوف الحمدة "السَّحَّات" و"الأَبْيَض"، ولهما قصتان طريفتان أخشى أن يطول بهما المقال، ولكن بشير الغول الحمدي قال لإبراهيم قلبوس: "درَّاعك ما بِنْفَعَنَّك، قشطّي ليك بالأبيض إلاّ أشُقَّك لي السَّرج". أما السحَّات فهو الذي ذكره أبوتريمة شاعر بشير الحمدي في قوله:

جوك جنياتْ الحَمَده الغلاد الراكبين الهايجات
الشايلين السّحّات يشقو الزول لا البيضات[١٣]

ولشهرة هذه السيوف أصبحت أعلاماً وأصبحت لها سمعة أشبه بالحرب النفسية متى ذكرت أصاب قلوب الأعداء الفزع منها.

ولأن هذه السيوف كانت عزيزة عليهم فإنهم لا يفرطون فيها إلا للضرورة فوق القصوى. ولذلك بكى شاعر البطانة الحاردلو على سيفه المشهور "أب نامة" لما اضطرته أحوال المهدية إلى بيعه بثلاثة أمداد ذرة؛ قال الشريف: "ومما قاله الحاردلو بتوكر (طوكر) بعد الذي لحقه من التعب وبعدما باع سيفه (أب نامة) من الجوع فوصف حاله القديمة وعزه ومكانته ووصف حاله الحديثة في شعر أرسله لخليفة المهدي فردّ له سيفه من بربر". وكان الحاردلو قد قال في ذلك:

كان لي الشايفُو دَهْ ما عندي منّو مَحاد
بعتَ أب نامة بي قيمة ثَّلاثَّ أمداد[١٤]

وأسوأ أنواع الضرورات وأبلغها أثراً أن يبيع الفارس سلاحه، ولا سيما إذا كان مثل "اب نامة" في شهرته.

وللشكرية سيوف كثيرة شهيرة جمع بعضها الشاعر أحمد عبدالله البنا (الفرجوني) في مسدار الخريف أو مسدار البطانة في قوله:

(١٣) المرجع السابق، ص ١٠٣.
(١٤) المرجع السابق، ص ٢٣.

فيها سيوف جُبارة الإيد وكت تَنْهَدَ فيها الدَّم وصَبَق الدم وأب صاموته قاطع الحد
والغَمْلان واللّصّيق وفيها أب قد[١٥]

فذكر اللصيق وأضاف له خمسة سيوف هي الدم، وصبق الدم، وأب صاموته، والغملان، وأب قد. ووصول هذه السيوف إلى هذا الشاعر المعاصر يدل على أنها ما تزال عزيزة مصونة.

ومن سيوف الشكرية "الغنّام"؛ قالت زوجة عمارة ود أب سن ترثيه:

الغنام في إيدو وتحتو بن الباير يا دخّال على الصف المدافعو دماير[١٦]

وعند الشكرية سيف الملكة أو سيف المكة المعروف بـ"سيف عمارة". قال الشريف معلقاً على قول ود أب شوارب يمدح أولاد أب سن:

من دَنْبُو وسقود ما قالوا الدغم انضاموا يخلو الصيف خريف فوق الجزيرة إن حاموا
لا هُم غوش ولا هم عَيِّلاً بتراموا عانيهم متل شيخ القبيلة مقامو

ثم قال: سقود شايقي قتله محمد أبو سن شقيق المدير أحمد بيك. قيل إن محمد ود أبو سن عند مبارزته لسقود[١٧] جدع فوق وجهه فردة فغطت وجهه وضربه بسيف الملكة (أو المكة) فقطعه نصفين. وورد ذكر هذا السيف عند ود أب شوارب شاعر السناب أيضاً في قطعة قديمة عويصة في محادثة بينه وبين شيخ الضباينة محمود ود زايد (شحم ألبل الدُّرَّر) في قوله لود زايد: "وقال كدي عبدو ودفتر شدّ حصانوا اللَّصْدَا (الأصدأ) وخت ليهو سيف الملكة سيف عمارة". وهنا أيضاً إشارة إلى ثقل السيف وأن الفارس لا يحتقبه ثم يركب بل يركب أولاً ثم يوضع له السيف أمامه.

ومن سيوف الشكرية المشهورة "النّينة"، وهو سيف حسان ود أب علي فارس الشكرية الذي أظهر شجاعة فائقة في حرب "الروَّقَتْ" بين الشكرية والركابية. وكان

(١٥) من عيون الشعر القومي في البطانة، حسان أبو عاقلة أبو سن، الشركة العالمية للطباعة، د. ت، ص١٢٣.
(١٦) الغنا والشعر : و٦٥.
(١٧) المرجع السابق: و٣٧.

الركابية قد استعانوا بملوك سنار وعزم جيشهم على هزيمة الشكرية وأقسم "كِرْنِكْ أب دوف" أن يسبي "عنيبة الموز" زوجة فارس الشكرية حسان الذي كان يشكو من الفرنديت (دودة غينيا). ولما دارت الحرب وتوجه كرنك نحو بيت حسان يريد زوجته. قام حسان حتى تقطعت حبال الفرنديت وركب الحصان فانقطع الركاب حتى ربطوا له سلبة قِدْ (حبل غليظ من جلد البقر) وجعلوها له ركابات وأحضروا له سيفه "النينة". فلما رأى كرنك هجم عليه فقطع رجله من حدها فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق تناول رجله المقطوعة ورمى بها في سرير عنيبة الموز ليبر بقسمه.[١٨]

كل هذا من ضروب الشجاعة النادرة ولكن كما قال الشريف تفانوا وماتوا في غير شيء.

ومن السيوف المتوارثة "أبو بقيع" سيف الملك نمر، ولعله المذكور في مرثية ود مهدي الشهيرة في عمارة ود الملك نمر:

ما هو الفافنوت ما هو الغليد البوص ود الملك عريس خيلاً بجن عركوس
أحيّ علي أب سيفاً بجز الروس

وهو سيف متوارث من الشيخ عجيب المانجلك ثم الملك إدريس ود الفحل ثم الملك نمر، قال الشريف: عثر جماعة الشايقية في اقتفائهم لآثار الملك نمر على أربعين سيفاً محلاة بالفضة من بينها سيف الملك المسمى "أبو بقيع"، وسيرته عند الشايقية باقية إلى اليوم، ومن المحتمل أنه عندهم وقيل أهدوه للسيد علي المرغني. قال ود مهدي:

سيفك قوبو وأصبح بِسوِّي النَّكْ حارسك من عجيب وإدريس ونمر الملك

وقد بالغوا في وصف هذا السيف حتى قال فيه ود مهدي:

يا ناس الإجارة في الصَّبي الورمان سيد الدكري الكبد الجفير قرمان

يعني أجاركم الله في هذا الشاب المقتول صاحب السيف الذي يشتاق للحم وهو في داخل جفيره. وهو السيف الذي يتعجب صانعو السيوف فيه:

(١٨) نفسه و٥٦.

سيفك في سِقَايْتُو اتعجّب الحدَّاد

وإن كان السيف مما يتعجب منه صانع السيوف وهو الخبير بجيدها ورديئها، فتلك غاية الجودة ونهاية المدح لأن أهل مكة أدرى بشعابها.

وقد فعل الملك نمر الهوايل بهذا السيف. ذكر الشريف حملة الدفتردار حين طارد فلول الملك نمر ومعه أرطة مصرية وأرناؤوط وقبائل حَمَر والغِدَيَّات وقبائل كردفان، لأنه كان حكمداراً بها، فلحقوا بالملك نمر وكانت واقعة "النّصوب" وأظهر فيها الملك نمر شجاعة فوق الطاقة؛ قال الشريف: "قام كاشف غليظ راكب على حصان أشقر تحدَّى وجزم أنه سيأتي برأس الملك نمر فلما اقترب التركي وعليه درع زَرْدَخْ قال لهم الملك: "أخوكم جاكم"، وأنزل رجله وجعلها في الركاب واخترط سيفه وطار عليه وضربه ضربةً منكرة رمى نصفه من عاتقه بيده على الأرض والنصف الثاني على الحصان، وأراد الفحل عم الملك نمر أن يمسك الحصان. فقال له الملك إنت أقروب؟ وجه الحصان بنصفه على الناس فوجهوه فغار بالنصف إلى أن وصل معسكر الأتراك فلم يجسر أحد بعدها على مهاجمة الملك".[١٩] وهذه هي الحرب النفسية التي تمثلها تلك السيوف كما أشرت إليه. وكان للملك نمر سيف آخر اسمه "أب جقيقة" قال فيه الفحل عم الملك نمر:

من عند المليك زمزم تقول مجنون يوم جَبَد اب جقيقة الدكّري المسنون

ويبدو أن "أب جقيقة" اسم علم لعدد من السيوف أو هو كنية عامة للسيف، وهو من الجَقّ أي الطعن. قالت شغبة المرغومابية الكاهلية:

سالِّين أب جقيقة والحُرابْ البرُّقْ

وقال الشيخ حياتي في مدح الصحابة رضوان الله عليهم:

شايلين أب جقيقة الودُّرْ[٢٠]

(١٩) نفسه و١٣١.

(٢٠) قاموس اللهجة العامية، د. عون الشريف قاسم، الدار السودانية للكتب، ط٣ مادة (جقق).

وكان للمنشتح بن الملك المساعد سيف مشهور قيل كان يقطع المكّية، وهي القيد الحديدي السميك، باعه للحمدة. فلما حاولوا أن يقطعوا به المكية لم يقطعها، فكلموه في ذلك فقال لهم : "أكان بِعْنالكم سيوفنا بعنالكم ضِرْعاتنا".[٢١]

وهذا أشبه بقصة "الصمصامة" سيف عمرو بن معدي كرب الزبيدي لما عرض على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.[٢٢]

ومن السيوف المشهورة التي أرّخ لها الشريف (دكاكر نَوَّة) واحدها دكّري قال د.عون إن كلمة (دُكَّرِي) نوبية وأظنها من الصارم الذكر. قال الشريف "أما السيوف الدكاكر المسماة (دكاكر نوة) فسميت باسم نَوَّة الشنبلي الذي نزل بالمسلمية شيخاً على أربجي، وكان قد جلب هذه السيوف من سواكن واشتهرت باسمه ولها تقريباً مائة وعشرون سنة".[٢٣]

ومن سيوفهم المشهورة أيضاً "الجبلاوي" سيف الشيخ كامتور. قال الشريف: كان كامتور فقيهاً يقرأ العلم إلى أن مات. وكان أشجع أهل زمانه، قال ود عبدالدافع إن كامتور ضرب "فَامَهْ" مقدم رجال محمد ود ناصر المشهور بـ"أب ريش" وهو فارس الهمج المشهور، ضربه بسيفه (الجبلاوي) بعزم شديد وزند أقوى من الحديد فطيرَّ قِحْف رأسه كأنما نشر بمنشار.[٢٤]

ومن السيوف المشهورة "أبو جديري" و"أب راكوبة" وهما للسلطان علي دينار أبو زكريا سلطان دارفور، ذكرهما الشاعر النيّل أحمد حسب الرسول السرورابي في مدحه للسلطان علي دينار في قوله:

(٢١) الغنا والشعر : و١٣٢.

(٢٢) انظر الخبر ومظانه في كتاب "عادات سودانية أصولها عربية"، د. إبراهيم القرشي ، مطابع الجزيرة ، الرياض ط١ ١٩٩٩م ، جـ١ ص ١٤.

(٢٣) الغنا والشعر: و ١١٢

(٢٤) كاتب الشونة لأحمد الحاج أبو علي تحقيق الشاطر بصيلي ومحمد مصطفى زيادة، وزارة الثقافة المصرية، ص ٥١، وتاريخ وجغرافية السودان لنعوم شقير ص ٩١. وود عبدالدافع هو إبراهيم عبدالدافع المفتي صاحب التاريخ المشهور "تاريخ سنار" وهو من الفتيحاب الجعليين توفي في حصار الخرطوم سنة ١٨٨٤م.

شدّولو بارم إيدو وأبو جديري في إيدو
اليوم ابْ حَرِبْ يا سيدي بِتْرِيدُو

وقال حسن النافعابي من شعراء السلطان علي دينار أيضاً وذكر سيفه (أبو جديري):

الملهوف بجيك بِتْأَمِّنُو وبتحِلُّو وكت الشوف يشوف تحتو اب جديري بسلو
والبابس الكلاله يا الخريف بتْبِلُّو والكازاك تعب بي إهانتو بتعجِّلّو[٢٥]

وقال النيّل السرورابي وذكر "اب راكوبه" سيف علي دينار:

شدولو اللَّربد واتيامن أب راكوبة نقرولو النحاس تَابْعَا الخيول مجنوبه

واتيامن "اب راكوبه"، أي حمل سيفه المعروف بهذا الاسم في يده اليمنى.

و"بارميدو" و"اللَّربد" (الأربد) من خيول السلطان علي دينار، وكان مشهوراً باقتناء الخيول الأصيلة من عربية وغيرها. و"بارميدو" أحسبها "بارم إيدو"، أي لاويها أو لافها – من اللَّيّ واللّف– يعني قوي صعب القياد. أما الأربد فهو من الرُّبدة وهي لون داكن توصف به الخيول والنعام فيقال "أربد وربداء". وذكر الخيول هنا يقودنا إلى الحديث عنها وهي مأثور آخر من مأثورات التراث اهتم به السودانيون جداً. وقد كان السلطان علي دينار من مشاهير أهل العناية بالخيل حتى ضرب بخيوله المثل؛ يقول الشاعر الحاردلّو يصف صاحبته:

تَضَلَّعْ متل مكلوف علي دينار[٢٦]

يعني تقلب أكفالها كما يفعل حصان علي دينار المعتنى به.

ومن خيول علي دينار اللَّصْدَا (الأصدأ) وهو الجواد الأَحو الجامع بين اللونين الأحمر والأسود وفيه دكنة تقارب دكنة صدأ الحديد ومن هنا أخذوا اسمه. وقد ورد ذكر "اللّصدا" في شعر حسن النافعابي في مدح السلطان علي دينار في قوله:

شدولك على اللّصدا اب زُرُقْتاً فاقعه سلطان العدل من قام بِسِنْدَ الواقعة
تركب بالهنا وتشرب زلال الناقعة مين يدنيك تضربو يا اب ضربةً صاقعة

(٢٥) الغنا والشعر :و١٥٧.

(٢٦) ديوان الحاردلو شرح وتحقيق د. إبراهيم الحاردلو ، الدار السودانية ط٥ ١٩٩١م ،ص ٨٥.

ومرّ بك ذكر الأصدأ أيضاً في حديث ود اب شوارب مع محمود ود زايد، كما مر ذكر "بت البابر" وهي فرس مشهورة لعمارة ود اب سن فارس الشكرية.

ومن الخيول العزيزة الأصيلة في السودان الخيول الدنقلاوية وهي ذات أكفال راجحة مشهورة تشبّه بها النساء؛ قال ود محلّق:

الشَّم غَرَّبت بِقْيَتْ قريب للغيب كاتلني حسار مهرة دنقلا ام جقليب
وبَرَق البرق يلاعب عُشبة الحَمَريب حرّك ما ببردو الجاب الكليت شقليب[٢٧]

يعني حرَّ حُبِّها وحساره لا يبرده البحر، وهو المقصود بقوله "الجاب الكليت شقليب".

وإذا جلب السلطان علي دينار الخيول العربية كان من باب أولى أن يكون قد اقتنى خيول دنقلا؛ وقد قال شاعره مصداقاً لذلك:

الليلة العزيز طالب بكان الصُّرة فوق زِمْلاً غُلاد والدنقلاوي اب غرة[٢٨]

وكان السلطان قد خرج في موكب مهيب لزيارة قبر أمه، وفي مثل هذه لمناسبات يستعرضون تلك المراكب الفارهة ويتأنقون في اختيارها.

وكان الشريف يوسف الهندي نفسه محباً لآلة الحرب كلها، حريصاً على اقتناء جياد الخيل حتى ذكر الشيخ بابكر بدري أن الشريف سمع بجواد أصيل لدى رجل من الفادنية يدعى ود اب ناجمة من حلة أم شديده بالبطانة، فكتب له يطلب منه أن يبيع له حصانه المشهور فرفض الرجل، فما كان من الشريف الحريص على مثل هذه المأثورات إلّا أن ركب بنفسه وزار ود اب ناجمة في قريته بالبطانة.[٢٩] وفي إحدى رحلاته للحجاز جلب الشريف معه ثلاثة من الخيول العربية الأصيلة بلبوسها المحلّى.[٣٠] وكان يؤرخ لسلالات الخيل الأصيلة؛

(٢٧) تاجوج والمحلق، محمد صالح ضرار، شركة الطبع والنشر، الخرطوم، ص ٧٢.
(٢٨) الغنا والشعر :و١٥٦. وقوله (بكان الصرة) يعني المكان المدفونة فيه أمّه.
(٢٩) تاريخ حياتي، للشيخ بابكر بدري مطبعة مصر (سودان) ليمتد ٨٨/٢.
(٣٠) رواية شفوية من الخليفة أحمد يسن المادح عليه رحمة الله، أحد خلفاء الشريف الهندي ومن الحفظة المجودين لتاريخ الشريف (مادة دونتها منه سنة ١٩٨١م).

قال في "كتاب الغنا" في معرض حديثه عن الشيخ المكي ود نصر السورابي الزليطابي من الشايقية، قال: "وهو سيد (صاحب) الخيول المسماة بنات الدروع، آلت للسيد محمد عثمان بن السيد الحسن والشيخ عوض الكريم أبو سن وميته بيك الأرمني الذي قتل مع غردون باشا. وأحضر الشيخ الحسين حصان السيد محمد عثمان للخليفة بأم درمان فغنمه سلاطين باشا وأعطاه للزبير باشا، وَتَرَبْ (نسل) بنات الدروع موجود عند الشريف يوسف".[٣١] فانظر كيف تتبع سلالة هذه الخيول وأرخ لها وسعى لاقتنائها حتى تم له ذلك، مما يظهر ولعه بهذه النفائس التي حرص على اقتنائها، ثم توج ذلك بالتاريخ لها.

وهذا التوثيق أشبه بتوثيقه لواحدة من مقتنيات التراث المهمة وهي "النُّقَّارة"[٣٢] رمز المُلك. فقد كان لكل قبيلة نحاس في حوزة زعيمها يتوارثه أبناؤه، وأكثر ما يعيب القبيلة هو أن يغنم أعداؤها نحاسها، ويعدّ هذا عاراً لا بد للقبيلة من غسله طال الزمن أو قصر، ولا يغسله إلّا استرداد ذلك النحاس المسلوب. وقد أرخ الشريف لواحدة من نقارات السودان المشهورة واسمها "الشَّمَنْدرة"، فقال عنها: "وغنم محمد أحمد شيخ إدريس نقارة الملك رونقه التي ورثها كابراً عن كابر واسمها "شمندرة"، غنمها جده الملك بادي أبو شلوخ – المكنى بالسجاد ملك الفونج بسنار – من إياسو ملك الحبشة الذي أغار على سنار وقُتِل. وغنمها ونجت باشا (حاكم السودان) من السيد محمد أحمد في واقعة طوكر، وهي بمنزله بلندن إلى اليوم".[٣٣] ولعلّ في تتبع هذه المأثورات، وخصوصاً ما وضع المستعمر يده عليه ونقله معه إلى بلده بعد الجلاء، أمر مهم. فإن لم نتمكن من استرجاعها فلا أقل من أن نعرف مظانها ومكان وجودها. وقد تحدث الأستاذ حسن نجيلة في ذكرياته في البادية طويلاً عن نحاس الكبابيش الذي خافوا أن يغنم منهم إبّان المهدية فهرّبوه، فكتب ماكمايكل عن قصة تهريبه وتفادي وقوعه في أيدي الأنصار: "وقد تاه هذا النحاس قرابة العشرين سنة

(٣١) الغنا والشعر :و١٦٣.

(٣٢) النقارة طبل كبير من النحاس أو الخشب يجلّد بجلد ثور، يقرع في الحروب والمناسبات المهمة، وتسمى النحاس أيضاً.

(٣٣) تاج الزمان في تاريخ السودان، ملحق الأولياء، مخطوط للشريف يوسف الهندي، (ورقة ٣٣).

(١٨٨٤-١٩٠٢م) ثم عثر على "الثور" وهو أكبر قطع النحاس الأربع.[٣٤] فذبحت الذبائح وأقيمت مهرجانات الفرح، وكان ذلك اليوم عيداً عند الكبابيش".[٣٥] وفي هذا دليل على ما ذكرناه من احتفاء السودانيين بمأثوراتهم، خصوصاً ما يتعلق منها بالملك وآلته ومراسيمه وما يرتبط بالقبيلة وعزتها.

أمّا الإبل فقد كان لأهل السودان احتفاء كبير بها، فهي وسيلة المواصلات التي لا تنافسها وسيلة. بها يصلون الأحباب وعليها يجلبون الميرة، وهي مهر الحسان ومال العرب الذي لا يدانيه مال، إلى غير ذلك من أسباب عظمتها عندهم. وقد اشتهرت منها في السودان سلالات كثيرة كـ"البشارية"، بل ذهبت بعض سلالاتها في هجرة عكسية إلى جزيرة العرب وظلت زماناً محلّ فخرهم. ومن ذلك الإبل البجاوية التي ورد ذكرها في شعر الطرماح بن حكيم في قوله:

ولم يَتَخَوَّنْ درَّها ضَبٌّ أفن بُجَاوِيَّةٌ لم تَسْتَدِرْ حول مِثْبَرِ

ووردت في شعر المتنبي أيضاً في قوله :

وكلّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وما بِيَ حُسْنُ المِشَى[٣٦]

بل هناك سلالات هي محل فخر أهل الجزيرة العربية إلى اليوم. وذكرت موسوعة الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية السلالات الوافدة التي دخلت إلى الجزيرة العربية بغرض السباق أو التّهجين أو للاستفادة من كثرة لحومها أو غزارة ألبانها، وعَدَّت من ضمن ذلك الإبل السودانية وسمّت منها ستّ سلالات هي: العَنَّافِيَّة والبشارية والكنانية الرفاعية والبجاوية والرشايدي أو الزبيدي ثم الكبابيش.[٣٧]

(٣٤) يتكون النحاس من أربع قطع: ثور — بقرة — عجلين.

(٣٥) ذكرياتي في البادية، حسن نجيلة، مكتبة الحياة، بيروت، ص ٢٠٦.

(٣٦) موسوعة الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، دار الدائرة، ط١، ٢٠٠٠م، مج ٦، ص ٤٨-٥٠.

(٣٧) ديوان أبي الطيب المتنبئ بشرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار المعرفة ،ص٣٧ ، لسان العرب (بجا)، عادات سودانية أصولها عربية، ص ٥١.

وقد تتبع الشريف الهندي أصولها أيضاً، بل جلب بعض سلالاتها العربية الأصيلة من الخارج. ففي رحلته للحجاز التي شارك فيها في الصلح بين ابن سعود والأشراف سنة ١٩٢٤م جلب الشريف يوسف إبلاً عرف نسلها في البطانة بـ"بنات الحاجة" أو "جنى الحاجة" لأنها جلبت من الحجاز. وقد ملأ نسلها البطانة وبوادي السودان ودار الكبابيش، ونسلٌ منها موسى ود مادبّو (في الرزيقات) والملك الصياح ناظر الميدوب. والكبابيش كلها فحّلت من إبل الشريف لأنها أصيلة.[٣٨]

وتسمية هذه السلالة تذكر بمسميات العرب القديمة، فهم يكنون عن الخيل بـ"بنات الريح"، ولهم سلالة مشهورة اسمها "بنات العصا" نسبة إلى فرس مشهورة. وقد مرت بك "بنات الدروع" من خيول الشايقية. وكله دليل على الاحتفاء بها والحرص عليها لأهميتها في حياتهم.

والمطلع على تراث الشعر الشعبي السوداني يجد العشرات من الجمال الأصيلة التي اعتنى بها أصحابها وأصبحت أعلاماً في إبل السودان، منها "السلوقي" جمل عبدالله ود أب سن الذي قال عنه في مسدار سيتيت:

مشيت وجيت لقيت دلّو السلوقي يجوني الناس يعِجُّو يقيفوا فوقي
شاكي الغلبة لاكين جدّ شوقي متل جمل العلوق كل حين أهوقي[٣٩]

أهوقي: مشرئباً يتوق إلى لقاء المحبوبة، والسلوقي كلب من كلاب الصيد وهو من السلالات العربية المميزة يكثر ذكره – هو والكتيوي – في أشعار البطانة. وحتى هذه الكلاب فقد انتقلت من بلادنا إلى أرض الشام فذكر ابن منقذ في "الاعتبار" الكلاب الزغاوية المشهورة. وزغاوة كانت من أرض السودان المشهورة قبل أن تحد الحدود.

ومن أعلام الإبل "البليب" جمل أحمد ود عوض الكريم أبو سن الذي قال عنه في مستهل مسدار رفاعة:

(٣٨) الخليفة أحمد يسن المادح (مادة مدونة شفوياً ١٩٨١م).

(٣٩) من مسادير الشكرية، سيد حامد حريز، شعبة أبحاث السودان ،١٩٦٩م، ص ٩٦.

رفاعة الرُّبَّه قافاها (البليب) طَرْبَان ناطْح المِنُّو ميزان عقلي مُو خَرْبان
قوسيب السواقي البي اللدوب شربان بعيدة بلودو فوق في بادية العربان[٤٠]

والبليب نوع من الطيور شبه به جمله في اللون ولعله في السرعة أيضاً.

ومنها "السِّوْسِيو" جمل أحمد ود عوض الكريم ود حمد صاحب مسدار القضارف الذي قال يخاطبه في أوله:

يالسوسيو بشوفك ليك دور بتُّوق تصنِف عِن عَلُوقَك وتَابَى ليهو تضوق[٤١]

والسوسيو هنا جمل الشاعر يشبهه بفرخ النعام، وهو أسرع فروخ الطير. كما قال عنه في المسدار نفسه:

سوسيو النعام الزَّعْزَعَنُّو شراتي

ومنها "سحار الغروب" جمل طه الضرير الذي قال فيه:

كضَم الجِرَّه سحار الغروب واتمحَّن نعود سَلْمَانه يا عمر الظنون إن صحّن

وللعاقب ود موسى أيضاً جمل بهذا الاسم وهو "الكافر". قال عنه في مسدار الضكير:

عَقَبْ العُقْدَة سحار الغروب الكافر[٤٢]

ومن مشاهير جمالهم أيضاً "الزَّرْزُور" وهو جمل محمود ود زايد، وكان جملاً نادراً. فحين انتصر شاعره ود مرين على الشاعر ود الكرار وذبح ودمرين جمل ود الكرار الذي فاز به في الرهان لفرخات (خدم) ود زايد من أجل شرب الخمرة، فرح ود زايد بانتصار شاعره، ولكن تحركت نخوته وأشفق على الشاعر المهزوم فجبر كسره وأهداه جمله النادر المسمى "الزَّرزور" تطييباً لخاطره.[٤٣]

(٤٠) المصدر السابق، ص ٣٢.
(٤١) مسادير البطانة (ديوان ود شوراني)، إبراهيم سالم البطحاني، المطابع العالمية، الرياض، ط١ ،١٩٩٣، ص ٤٦.
(٤٢) من مسادير الشكرية ص ٧٨.
(٤٣) الغنا والشعر : ص ٧٥.

ومنها "الدَّرْمَاس" جمل شرف ود عبدالصادق الحميداني فارس الكواهلة الذي قال فيه:

كم شديت درماسي متل العسكر ناسي وكم علق رصاصي خراب الشرق من راسي[٤٤]

ولا يخفى أن ألقاب الإبل المأخوذة من أسماء الطيور، كالبليب والقمري والزرزور والسوسيو، فيها إشارة واضحة إلى تشبيهها بها في السرعة. وحتى حينما يسمون السحّار فالسرعة هنا مقصودة، يدلك على ذلك قول أحمد أبو عاقلة اب سن:

الدرب صارلو جاهل وهو انقلب سحار[٤٥]

والطفل الذي يعدو خائفاً لا يبقي ذرة من طاقته حتى ينجو.

ومن جمالهم النادرة الشهيرة: اليهودي والحوري من أعلام إبل البطاحين، والسلكوك جمل أب شورة، والطربان وود الدينكى والسكران والهَرَع وأبوشكال، وهذه الخمسة الأخيرة لود شوراني الكاهلي.[٤٦] و"الحار حار" لود الفراش.[٤٧]

وقبل هؤلاء كلهم يأتي الشيخ الحاردلو شاعر البطانة. ومع قلة ذكر الإبل في شعره واشتهاره بشعر الغزل والصيد، إلا أنه كان صاحب جمال شهيرة منها "البانقير" الذي تسمت به جمال أخرى كثيرة، وهو الذي يقول فيه:

يا حليلِكْ قبيل وكتاً بانقير كان عندي وجمالي مَشَنْكَتَاتْ يخدمن الفي شندي

بعد ما بقيت مفلس وعادم الجرقندي يا معشوقة لامتين نتقلد في الهندي[٤٨]

والجرقندي عُملة قديمة، والهندي نوع من الثياب المجلوبة من الهند. والثياب نفسها بأسمائها وخاماتها هي باب واسع من أبواب المأثورات تستحق أن يفرد لها دراسة، وسأفعل إن شاء الله.

(٤٤) من عيون شعر البطانة : ٦٣.

(٤٥) الغنا والشعر :ص ١٥٩

(٤٦) مسادير البطانة ص ٧٥، ٢٠٠.

(٤٧) ديوان الفراش ، جمع محمد علي الفراش ، الدار السودانية للكتب ،ص ٧٥.

(٤٨) ديوان الحاردلو، ص ٨٣.

هذه نبذة مختصرة عن بعض مأثورات التراث السوداني، تبرز الحفاوة الواضحة بتلك المأثورات التي كان لها أثر في حياتهم وارتبطت بأصحابها الذين كانوا أعلاماً فأصبحت أعلاماً مثلهم. فإذا كانت السيوف هي سلاح الحرب المقدّم في زمانهم كانوا معذورين بل مدعوين للحرص على اقتنائها والمحافظة عليها. أما الخيول والإبل فهي ركائب السفر الوطيئة ومراكب الزينة الفارهة لاستعراض القوة وأبهة السلطان (ولكم فيها جمال)، وهي مظهر من مظاهر الغنى والجاه والمنعة عند الأعيان؛ قال الشايقي:

قمنا بالفراخ والسلاح وقمنا بالشبح ال في المراح

و"الفراخ" العبيد، و"الشبح" الجواد الأصيل.[٤٩] ألا تراه افتخر بما عنده من عبيد وسلاح وخيول أصيلة. وهي آلة حرب بها يكون النصر وعلى ظهرها تكون النجاة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة). وهي مظهر من مظاهر القوة حتى عند الهمباتة، ووسيلة من وسائل النّهب والسلب. فهي لذلك عزيزة عليهم. كما أنها وسيلة من وسائل المهاداة بين الملوك والأعيان، وهي مصدر من مصادر الرزق. وتظهر حفاوتهم بها في عنايتهم في اختيار أسمائها وألقابها. وإذا كانت كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى فإن التسمية نفسها فيها دليل على العناية بالمسمّى. وما أكثر الخيول والإبل وآلة الحرب في التراث، ولكن حظوة بعضها بالتسمية فيه دلالة على اشتهارها، ولا يشتهر إلا ما كان نادراً وأصيلاً ومميزاً.

ولهذه المأثورات أشعار قيلت فيها وطرائف ونوادر حكيت عنها وعن أصحابها سيطالع المهتمون بالتراث كثيراً في كتاب الشريف المذكور (الغُنا) حين يرى النور، وفي كتابنا "عادات سودانية ج٢". فنحن ما نزال بحاجة إلى مزيد من الكتب والبحوث والدراسات التي تَسْبرُ أغوار التراث، تستجلي غوامضه وتستخرج كنوزه ليرى الناس أن لنا تراثاً وأمجاداً حين نجترها في زمان العولمة هذا فإنما نريد لها أن تكون مصدر ثقة للأجيال تجعلهم ينطلقون إلى الأمام من قاعدة متينة.

(٤٩) ذكرى صديقين ، د. عبدالله الطيب ، نشرة ١٩٨٧م ، ص ١٥.